

اجتهادات بهية لا تموت

عندما تشاهد الفنانة الكبيرة محسنة توفيق فى فيلم «العصفور»، تجد أن دور بهية الذى تؤديه يليق بها تماماً. ليس الدور فقط، بل الاسم أيضاً. اسم بهية، الذى يرمز فى هذا الفيلم الرائع إلى مصر. إنه الاسم المشتق من البهاء، أى الإشراق والفخامة والعظمة.

أجاد المبدع الجميل أحمد فؤاد نجم عندما اختار أن يرمز إلى مصر بهذا الاسم دون غيره فى أغنيته «مصر يا أمه يابيه/يا أم طرحة وجلابية». كما أحسن صنعاً الكبيران يوسف شاهين ولطفى الخولي، عندما اختارا هذه الأغنية فى تتر فيلم «العصفور»، وأسندا دور بهية إلى محسنة التى رحلت عنا قبل أيام.

والرحيل عن الدنيا لا يُعد موتاً فى كل الأحوال. أمثال محسنة توفيق يبقون بإبداعهم، وتاريخهم أيضاً. فهى جزء من تاريخ مصر القريب، ليس بإبداعها الفنى المتميز فقط، بل بمواقفها السياسية أيضاً. لم تمارس نشاطاً منتظماً فى المجال العام. لكنها اتخذت مواقف شجاعة فى مختلف المراحل منذ الستينيات. وفى كل من هذه المواقف، كانت قريبة من نبض المصريين البسطاء الطيبين لأنها ظلت منهم بعد أن صارت نجمة ساطعة.

ولو أنها لم تؤد سوى دور بهية فى فيلم «العصفور»، ودور نعيمة فى مسرحية المبدع المظلوم نجيب سرور «منين أجيب ناس»، لكفاها فخراً. ولم تكن مصادفة أنها كانت رمزاً لمصر فى الحالتين. كانت فى

«العصفور» مصر التي تماسكت عقب هزيمة 1967، وأصرّت على استعادة أرضها الغالية، وهتفت من أعماق قلبها حنارب. أنتج الفيلم عام 1972، لكنه لم يُعرض إلا عام 1974، فبدأ كأن العمل فيه انتهى بعد انتصار أكتوبر، وليس قبله لعوامل منها إبداع محسنة، وصدق إحساسها.

وبعد نحو عشر سنوات أدت دور نعيمة، التي ترمز لمصر أيضاً لكن في سياق آخر، في «منين أجيب ناس» على مسرح السلام. نعيمة التي رفضت الاستسلام عندما قُتل حبيبها حسن رغم قلبها المخنوق: «ويقولوا». «مرة الحقيقة/ليه حسن قتلوه/ونعيمة ليه قلبها/ في عز الربيع خنقوه

تحية لروح المبدعة الراحلة التي نجد في كل أعمالها معاني حرصت على الالتزام بها، ولم تحد عنها.